

صورة المدينة في رحلة الإدريسي: المجلد الأول عينة

Urban Representations in al-Idrisi's Journey: the First Volume as a sample

فايزة خمقاني

مؤسسة الانتماء،

مخبر الانتماء

khemgani.faiza@univ-ouargla.dz

نادية مفاتيح*

مؤسسة الانتماء،

مخبر الانتماء

Mefatih2000hihidaya@gmail.com

الاستلام ٢٠٢٥/١١/١٧ القبول ٢٠٢٥/١١/٢٨

النشر ٢٠٢٥/١٢/١١

ملخص:

تحلل هذه الدراسة الحضارة المدنية في الغرب الإسلامي من خلال كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشرif الإدريسي (١١٥٤/٥٤٨م)، مستكشفة كيفية عمل المدن الإسلامية كأنظمة متكاملة. اتُبع منهج وصفي تحليلي لفحص المجلد الأول عبر أربعة محاور: السياق الجغرافي، البنية المعمارية، الأبعاد الاقتصادية-الاجتماعية، والجوانب الثقافية-الدينية. التحليل النصي لتحقيق إسماعيل العربي (١٩٨٩) استخرج المؤشرات الحضرية شاملة قياسات المسافات، الأوصاف المعمارية، الأنشطة الاقتصادية، والأنماط الاجتماعية. كشف التحليل عن فهم الإدريسي المتطور لديناميات الحضرية، مبيناً كيف يعمل الموقع الجغرافي كمتغير تفسيري يوجه التطور العمراني عبر ثلاث آليات: الحماية (المواقع الجبلية)، التوسع (السهول)، والوصل (المواقع الساحلية). أثبتت الدراسة تجاوز "نزهة المشتاق" للوصف الجغرافي التقليدي، مقدماً المدن كأنظمة معقدة تتفاعل فيها البيئة الطبيعية والخيارات المعمارية والشبكات الاقتصادية والمؤسسات الدينية جديلاً. يوفر عمل الإدريسي توثيقاً حيوياً للعمران الإسلامي المتوسطي في القرن الثاني عشر الميلادي، مع محددات تشمل الاعتماد على روايات ثانوية وضعف تمثيل الطبقات الاجتماعية الدنيا.

الكلمات المفتاحية: الإدريسي؛ نزهة المشتاق؛ مدينة إسلامية؛ جغرافيا حضارية؛ القرن السادس الهجري.

Abstract :

This study analyzes urban civilization in the western Islamic world through Al-Sharif Al-Idrisi's work *Nuzhat al-Mushtaq fi Ikhtiraq al-Afaq* (548 AH / 1154 CE), exploring how Islamic cities functioned as integrated systems. A descriptive-analytical method was employed to examine the first volume through four axes: geographical context, architectural structure, socio-economic dimensions, and cultural-religious aspects. The textual analysis of Isma'il Al-'Arabi's 1989 edition extracted urban indicators including distance measurements, architectural descriptions, economic activities, and social patterns. The analysis revealed Al-Idrisi's advanced understanding of urban dynamics, showing how geographical location serves as an explanatory variable guiding urban development through three mechanisms: protection (mountainous sites), expansion (plains), and connection (coastal areas).

The study demonstrates that Nuzhat al-Mushtaq transcends traditional geographical description, presenting cities as complex systems where the natural environment, architectural choices, economic networks, and religious institutions interact dialectically. Al-Idrisi's work provides vital documentation of Mediterranean Islamic urbanism in the twelfth century CE, though limited by reliance on secondary narratives and underrepresentation of lower social classes.

KeyWords: Al-Idrisi; Nuzhat al-Mushtaq; Islamic City; Urban Geography; Sixth Century AH.

*المؤلف المرسل

المقدمة:

يُعَدُّ الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الحسني (٤٩٣هـ/١١٠٠م - ٥٦٠هـ/١١٦٥م أو ١١٧٥م) من أعلام الجغرافيا العربية والإسلامية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. تختلف الروايات في تاريخ ميلاده ووفاته؛ فالتاريخ الأول مستند إلى رواية ليون الإفريقي المصحَّحة، بينما يورد عماد الدين الأصفهاني (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م) تاريخاً يمتد إلى ٥٧١هـ، ويرجِّحه Ducène (2017) لاتساقه مع استمرار نشاط الإدريسي في عهد غليوم الأول. وُلِدَ في سبتة لأسرة إدريسية، وتلقَّى تعليمه في قرطبة التي كانت مركزاً للعلوم الجغرافية والفلكية والرياضية في الأندلس (Stojkovski, 2020).

طاف الإدريسي في أصقاع واسعة من العالمين الإسلامي والأوروبي، الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى، مما أتاح له معاينة مباشرة لعدد من الأقاليم التي وصفها لاحقاً. ثم استقر في بلاط الملك النورماني روجر الثاني بصقلية، حيث ألَّف بتكليف منه كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» خلال نحو خمسة عشر عاماً (٥٣٣-٥٤٨هـ/١١٣٩-١١٥٤م)، مع إشارات داخلية إلى أحداث لاحقة تعود إلى سنتي ١١٥٧-١١٥٨م (Ducène, 2017). وقد عُرف الكتاب أيضاً باسم «كتاب روجر» أو «الكتاب الروجري»، وهي تسمية تشهد لها أقدم المصادر؛ إذ يذكره ابن سعيد الأندلسي (ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) بـ«كتاب أجار» ويشير إليه عز الدين بن شداد (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) بـ«كتاب أحرار»، بما يدل على ذبوع هذه النسبة منذ القرن السابع الهجري (Ducène, 2017). ويربط السعدي (٢٠١٠) هذا المشروع بإنجاز مجسم كروي للعالم من الفضة، بما يكشف عن طموح بصري-مادي موازٍ للجهاز الخرائطي.

استند الإدريسي في بناء عمله إلى منهجية متعددة المصادر تجمع بين الجغرافيين والخرائطيين المسلمين، وخاصة ابن حوقل والخوارزمي والبيروني، والتراث الكلاسيكي ممثلاً في بطليموس بنسختيه اليونانية والعربية، إضافة إلى مؤلفات بيزنطية متاحة في مكتبة البلاط النورماني (Stojkovski, 2020). وتبيّن دراسات تاريخ الكارتوغرافيا أن مادته نُظِّمَتْ في سبعين «مصورة» موزَّعة على سبعة نطاقات، مع تحديث واسع للأسماء وتمثيل أدقّ للواجهات البحرية قياساً بالنموذج البطلمي، بالاعتماد على شبكة من المعلومات الواردة إلى بلاط باليرمو من تجار ورحالة ووثائق ديوانية

(Ducène, 2008). ويشكّل المصدر الشفهي عنصراً أساسياً، ولا سيما في تصوير أوروبا، عبر أخبار البعثات الدبلوماسية والأرشفيات الملكية، في حين اعتمد في تصوير آسيا والعالم الإسلامي أساساً على الجغرافيين المسلمين ضمن إطار بطلمي عام (Stojkovski, 2020). يكشف هذا التنوع وتفاوت قرب الإدريسي من الأقاليم عن ضرورة التعامل النقدي مع معطيات «نزهة المشتاق» واعتبار درجة الموثوقية متفاوتة باختلاف نوع المصدر والمجال الجغرافي.

تكمن أهمية «نزهة المشتاق» في تجاوزها حدود الوصف الجغرافي التقليدي إلى تقديم صورة حضارية شاملة للعالم المعمور في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي؛ إذ لا يكتفي الإدريسي بتحديد المواقع والمسافات وذكر الطرق والمسالك، بل يصف المدن من حيث عمرانها وسكانها واقتصادها وثقافتها، مما يجعل كتابه مرجعاً أساسياً لفهم أنماط الحياة الحضرية في الغرب الإسلامي وفي الفضاء المتوسطي الوسيط.

منهج الدراسة وأهدافها

تسلك هذه الدراسة منهجاً وصفيّاً-تحليلياً يقوم على استقراء نصوص المجلد الأول من «نزهة المشتاق» في اختراق الآفاق» وفق تحقيق إسماعيل العربي (١٩٨٩)، لاستخراج العناصر التي تشكّل صورة المدينة في الغرب الإسلامي ضمن منظور يدمج الأبعاد الجغرافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويُستند في ذلك إلى تحقيق العربي مع الوعي بتعمّد تقليد المخطوط؛ إذ تشهد للنص قرابة عشرة أصول، أقدمها مخطوط باريس (BnF Arabe 2221) المنسوخ بخط مغربي نحو ١٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وقد أظهرت الدراسات الفيلولوجية تفرّعها إلى ثلاثة سلاسل رئيسية تفسّر اختلاف القراءات في بعض الأسماء والمسافات (Ducène, 2017, pp. 34-37).

تهدف الدراسة إلى: (١) تحديد منهج الإدريسي في توصيف المدن وربط المواقع بالمسافات والعناصر الطبيعية والعمرانية-الاجتماعية؛ (٢) استخراج ملامح صورة المدينة في مجال الغرب الإسلامي (المغرب، الأندلس، إفريقيا) عبر أربعة محاور مترابطة: السياق الجغرافي ومسالك الاتصال، البنية العمرانية-المعمارية، الحياة الاقتصادية-الاجتماعية من حرف وأسواق وشبكات، والبعد الثقافي-الديني المتمثل في المراكز العلمية ومركزية المسجد؛ (٣) تقويم القيمة الحضارية للنص التي يتجاوز بها الوصف الجغرافي التقليدي، مع التنبيه إلى حدوده من حيث طابعه التجميعي وتفاوت النسخ. تنطلق الدراسة من فرضية إجرائية مفادها أن الموقع الجغرافي متغيّر مفسّر يوجّه اختيارات المدينة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية أكثر مما يمثّل إطاراً محايداً، ويُختبر ذلك عبر مؤشرات نصية متكررة في وصف الإدريسي للمسافات وشبكات الاتصال والموارد المحلية وأثر الطبيعة في توجيه الوظائف الحضرية. وعلى هذا الأساس يبيّن البحث إسهام «نزهة المشتاق» مصدراً لفهم الحياة الحضرية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وما يتيح من عناصر تحليلية وما يعوزه من جوانب تحتاج إلى استكمال بالنقد التاريخي.

I. المحور الأول: المدينة في سياقها الجغرافي

يفحص المحور الأول الفرضية على مدن المغرب الإسلامي، مستجلباً العلاقات التفسيرية بين البيئة الطبيعية (مناخ، تضاريس، موارد) والخيارات الحضرية (تحصينات، صناعات، شبكات).

يؤسس الإدريسي تحليله الجغرافي على منهج ثلاثي الأركان: ملاحظة المواضع والعناصر الطبيعية (سواء عبر الزيارات الشخصية أو شهادات الثقات)، التحقق من المعطيات بتقاطع الروايات والقياسات، والمقارنة بين المدن ضمن شبكة الأقاليم السبعة. ويجري الاستدلال في هذا المحور من العبارات الوصفية إلى الوظائف الحضرية عبر مؤشرات نصية متكررة (الموقع الجبلي/النهري/الساحلي، المسافات، البنى التحصينية، الموارد) تستخدم بوصفها قرائن على آليات الحماية والاتساع والوصل المذكورة لاحقاً. وتقرأ هذه المؤشرات في سياقها المعرفي الوسيط، مع الإحالة الدقيقة إلى الشواهد النصية.

يكشف تحليل نصوص الإدريسي عن فهم عميق للعلاقة الجدلية بين الطبيعة والعمران؛ فالبيئة عنده ليست إطاراً محايداً، بل قوة فاعلة تشكّل كيان المدينة وتوجّه وظائفها الاقتصادية والاجتماعية. وتستخدم الشواهد الآتية أمثلة تفسيرية عامة، مع تركيز التطبيق التفصيلي على مدن الغرب الإسلامي موضوع الدراسة، كما سيظهر في وصف فاس، وسبتة، والمهدية، وسجلماسة.

I. البيئة كمحدد للعمران والصفات البشرية

يرى الإدريسي أنّ البيئة الطبيعية، وبخاصّة المناخ، عامل أساس يفسّر إمكان قيام العمران ويؤثّر في صفات السكان. يشرح أولاً أن الربع الجنوبي من الأرض غير صالح للسكن بسبب الحرارة الشديدة: «وأيضاً فإن الربع الجنوبي وهو الذي فوق خط الاستواء غير مسكون ولا معمور لشدة الحر به دائماً على سمته فجفت مياهه وعدم حيوانه ونباته لعدم الرطوبة» (الإدريسي، ج ١، ص ٨).

ويمتد هذا التأثير المناخي، في نظره، ليشمل الخصائص الجسدية للسكان، حيث يربط بين حرارة الأقاليم ولون بشرة أهلها: «ولذلك أهل هذا الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفللفة بضد ألوان أهل الإقليم السادس والسابع» (الإدريسي، ج ١، ص ١٨).

يقدم هذا النص تفسيراً يربط قابلية العمران بالمعطيات المناخية ويمتدّ إلى الفروق الجسدية بين السكان. وتقرأ هذه الرؤية في سياقها المعرفي الوسيط، ولا تتخذ معياراً علمياً معاصراً، إذ تعكس منظومة تفسيرية سائدة تأثرت بنظرية الأقاليم والحتمية المناخية. تكشف إشارات أنّ الاعتدال المناخي وغزارة المياه يسهمان في تنوع المحاصيل وكثرة البساتين وما يتّصل بصحة السكان في فاس، كما تدفع الطبوغرافيا الجبلية نحو الاستثمار الدفاعي للموقع في سبتة القائمة على جبل منيع يوقر حماية وسيطرة على المضيق، فيما يتيح السهل المنبسط لقرطبة الامتداد العمراني والبساتين المحيطة بها. أمّا الموقع الساحلي المكشوف للمهدية فيحدّد وظيفتها البحرية التجارية والعسكرية ويفضي إلى صناعة متقنة مع تحصين بالأسوار والأبراج. بذلك تعمل البيئة إطاراً مقيداً وممكناً في آن معاً، ترسم حدود الممكن العمراني وتوجّه الاختيارات التقنية والدفاعية، من غير إلغاء لفاعلية الإنسان في التكيف والاستثمار.

II. جهاز القياس والتموضع الجغرافي

تُسند أوصاف المواقع عند الإدريسي إلى جهاز مزدوج: نصّي (المسافات بالأميال، الاتجاهات، العلاقات المكانية) وخرائطي. ومن منظور عملي، يفيد السعدي (٢٠١٠) بأن الجهاز الخرائطي قام على إعداد «لوح ترسيم»

واسع رُسمت عليه شبكة الإحداثيات، تُبنت عليه المواضع بالفرجار قبل نقلها إلى المصوّرات النهائية، بما يعكس بعداً تقنياً واضحاً في صناعة الخريطة الإدريسية.

يتكوّن هذا الجهاز من سبعين خريطة مقسّمة على الأقاليم السبعة، كما يؤكّد الإدريسي نفسه: «ومبلغ أعداد هذه المصوّرات الآتية بعد هذا سبعون مصورة» (الإدريسي، ج ١، ص ١٣). ويرتبط مفهوم الأقاليم السبعة بتأثيرات هيلينية استوعبها التراث الجغرافي الإسلامي؛ إذ يبيّن Tanrikulu (٢٠٢٣) أن قبول هذا النموذج لم يكن تقنياً فقط، بل ارتبط أيضاً بالرمزية الكونية للرقم سبعة. وقد حوّل الإدريسي هذه النظرية المناخية إلى إطار قياس عملي حين قسّم الأرض المعمورة إلى سبعة أحزمة عرضية وجزء كل إقليم إلى عشرة قطاعات طولية متساوية، وهو ما يفسّر العدد سبعين ويربط بين البنية النظرية والجهاز الكارثوغرافي التنفيذي (Tanrikulu, 2023). ويتضافر ذلك مع ما ورثه المسلمون عن التقليد اليوناني المنسوب إلى بطليموس، الذي وصلت معاهداته باليونانية والعربية (Sarip, 2020, p. 390)، واستثمره جغرافيون أوائل مثل الخوارزمي وابن خردادبه والجيّهاني لتنظيم المعلومات الجغرافية وفق دوائر العرض ونظام إحداثيات الطول والعرض، مع إقرار الإدريسي نفسه بهذه الأصول: «ومن هذه الجزائر بدأ بطليموس يأخذ الطول والعرض» (الإدريسي، ج ١، ص ١٧).

تُعامل المسافات المحدّدة والمعالم المعدودة في النص بوصفها مؤشرات موضوعية قابلة للتحقق لا زخارف بلاغية. وتشير القراءة التاريخية للكارثوغرافيا إلى أن القيمة المضافة عند الإدريسي تتمثّل في ترتيبٍ تحزيمي أدقّ للأقاليم وتحديثٍ منهجي للتسميات وربط أكثر انضباطاً بين المواضع والواجهات الساحلية، وهو ما يفسّر كثافة المؤشرات المسافية والموضعية في متن الكتاب (Ducène, 2008). وترتكز هذه الدقة على منظومة قياس صريحة: «واستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاث مائة وستون درجة والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً» (الإدريسي، ج ١، ص ٨)، وتجنّس عملياً في تكرار تحديد المسافات بين المدن، مثل قوله: «ومن جزيرة أوليل إلى مدينة سلى ست عشرة مرحلة» (الإدريسي، ج ١، ص ١٨)، بما يعزّز قابلية «النزهة» للتوظيف التحليلي في قراءة المورفولوجيا الحضرية، خصوصاً في الواجهة الغربية للمتوسط (Ducène, 2008).

ولم يكتف الإدريسي بالإطار الإحداثي النظري، بل عمد إلى التحقق الميداني كلما أمكن. تكشف دراسة وشاح (٢٠٢١، ص ٢٤٢-٢٤٤) أنه اعتمد أربعة مصادر متكاملة: المؤلفات الجغرافية السابقة، والمشاهدة الشخصية في الأقاليم التي عاينها -وخاصة المغرب والأندلس- والمقابلات مع تجار ورحالة موثوقين، والبعثات الاستكشافية التي موّلها روجر الثاني. يظهر أثر هذا التحقق في التفاصيل الدقيقة للموارد الطبيعية والمنتجات المحلية التي يصعب استقاؤها من الكتب وحدها، مما يفسّر تفاوت موثوقية المعلومات بحسب قرب الإدريسي من الإقليم الموصوف أو بعده عنه. وتبيّن دراسة حديثة لقراءة ابن خلدون لمصوّرات الإدريسي أن الاعتماد على الخرائط وحدها يفضي إلى إبراز الشبكات الطبوغرافية والتقسيمات الإقليمية على حساب التفاصيل العمرانية للمدن؛ إذ ركّز ابن خلدون في عرضه على الجبال والأنهار والأقاليم، بينما يحتفظ النص الإدريسي نفسه بثروة من التفاصيل التاريخية والمعلومات السياقية

والحكايات وعناصر التاريخ الطبيعي والمسالك الكثيرة (Hiatt, 2025). ومن ثمّ تعتمد هذه الدراسة على النص المحقّق لـ «نزهة المشتاق» بوصفه المدخل الرئيس لاستخراج صورة المدينة.

٣. الماء شريان الحياة وأساس قيام المدينة

لا يذكر الإدريسي الأنهار والبحار بوصفها معالم مكانية فحسب، بل بوصفها عناصر حيوية للمدينة؛ فالماء أساس الزراعة والصناعة ومسالك التجارة. وتتجلّى هذه الرؤية في وصفه لبلاد «ونقارة»، حيث يرتبط النشاط الاقتصادي بإيقاع فيضان النيل وانحساره: «وببلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة [...] والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة فإذا كان في شهر أغشت وحمى القيظ وخرج النيل وفاض غطى هذه الجزيرة [...] فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان [...] بحثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر» (الإدريسي، ص ٢٤).

يظهر النص الارتباط العضوي بين المورد المائي وبنية الاقتصاد المحلي، ويكشف عن دورة سنوية (فيضان-انحسار-استخراج) تتحكّم بإيقاع الحياة الاقتصادية. يتبدّى تعدّد وظائف الماء وترابطاتها: ففي المدن النهرية، يتجاوز دوره الشرب والزّي ليغدو محرّكا صناعيا ومنظّما للفضاء الحضري؛ ففي فاس، كما يصفها الإدريسي، يخترق النهر المدينة «من طرف إلى طرف» بماء «عذب زلال»، وعليه «تدور أرحاؤها الكثيرة» وتقوم «مصابعها ودباغها المتقنة»، مع تميّز إضافي بأن النهر «لا ينقطع ولا يجف صيفا ولا شتاء» (الإدريسي، ص ٢٣٦). فتتموضع الصناعات المائية على ضفافه وتبتعد الأحياء السكنية نسبيا اتقاء للروائح والضحيج.

وفي المدن الساحلية، لا يستثمر البحر للشرب أو الطواحين، بل يعمل طريقا تجاريا ومجالا لصناعة استراتيجية هي صناعة السفن؛ ففي المهديّة يصف الإدريسي وجود «مرسى حصين محمي من الأمواج والرياح» تقصده «المراكب الكبيرة» من أقاليم المتوسط، وتوجد معه «صناعة متقنة للسفن الكبيرة والصغيرة» (الإدريسي، ص ٢٥١). ويفهم من شبكة الأوصاف أنّ طبائع الماء (جريان دائم/موسمية الفيضان/ملوحة البحر) تنتج طبائع حضرية مقابلة: انتظاما صناعيا داخل المدينة النهرية (فاس)، تجارة وبحريّة وصناعة سفن في الحواضر الساحلية (المهديّة)، واستراتيجيات تخزين/مخازن قرب المرسى. هذا التحليل لا يستحدث عللا خارج النص، بل يركّب مصفوفة وظائف يقع الماء في مركزها.

٤. الموارد الطبيعية كمحرّك للاقتصاد وصانع للهوية الحضرية

يربط الإدريسي هوية المدينة الاقتصادية بمواردها المتاحة؛ فالمورد الفريد يحوّل الموضع إلى عقدة تجارية رئيسة. يتضح ذلك في وصفه لأوليل منبعاً حصرياً للملح: «فأما جزيرة أوليل فهي في البحر... وبها الملاحه المشهورة ولا يُعلم في بلاد السودان ملاحه غيرها ومنها يُحمل الملح إلى جميع بلاد السودان» (الإدريسي، ص ١٧). يكشف هذا عن سلسلة سببية واضحة: وجود مورد وحيد يؤدي إلى تخصّص اقتصادي محدّد، فيستتبع ذلك تدقّق التجار والحرفيين نحو الموضع، مما يُنتج بنية عمرانية متخصصة من فنادق ومخازن وأسواق، وينتهي بإكساب المدينة مكانة إقليمية مميّزة.

ويُجسّد سجلّماسة المنطق نفسه؛ إذ يصفها بأنها «مقصود للوارد والصادر» (الإدريسي، ص ٢٢٨)، بوابةً على أطراف الصحراء الكبرى ومحطاً لقوافل السودان المحمّلة بالذهب والعبيد والعاج، بما ينعكس على أسواقها العامرة وتركيز التجار الأثرياء. وتعكس دقة هذه الصورة اعتماد الإدريسي على معلومات ميدانية جمعها من تجار ورخالة استُضيفوا في بلاط باليرمو وسئلوا عن المسالك والسلع والأسعار وأحوال المدن. (Sarip, 2020, p. 394)

وفي فاس تتحوّل الموارد المعدنية إلى صناعات متقنة؛ إذ يذكر أن فيها «من صناع النحاس الماهرين والحديد المتقنين عدد كبير» (الإدريسي، ص ٢٣٦)، يصنعون الأواني والآلات الزراعية والأسلحة، مع تخصّص واضح للأسواق الحرفية (سوق الحدادين، النحاسين). ويتيح الموقع الساحلي الحصين لسبّية تطوير صناعات حربية ودورٍ للسلاح والتحكم بممرات العبور البحرية.

يبيّن هذا التنوّع من ملح أوليل إلى معادن فاس وموقع سبّية الاستراتيجية، أن البيئة إطارٌ مقيّدٌ ومُمكنٌ في آن؛ ترسم حدود الممكن العمراني لكنها لا تلغي فاعلية الإنسان في التكيف والاستثمار والابتكار عبر التقنيات (الموانئ المحصّنة، الأرحاء المائية، الأنظمة الدفاعية) والتنظيم الاجتماعي-الاقتصادي.

II. المحور الثاني: البنية العمرانية والمعمارية

بعد بيان أثر البيئة الطبيعية في الخيارات الحضرية، ينصرف هذا المحور إلى تتبّع تجسّد تلك الخيارات في عناصر معمارية: الأسوار، والمساجد، والأسواق، والقصور، بما تحمله من وظائف دفاعية ودينية واقتصادية وسياسية. يكشف وصف الإدريسي عن رؤية متكاملة تربط المكونات المادية للمدينة بأبعادها الوظيفية، كما تتجلى في نماذج تطبيقية لمدن رئيسية.

وتتوافق هذه الصورة مع ما انتهت إليه دراسات المدينة الإسلامية من نمط داخلي متكرّر يقوم على رباعية: مسجد جامع في القلب، وسوق مركزي متخصص، وجهاز تحصين من أسوار وأبراج وأبواب، وقصر حكم يمثّل بؤرة السلطة. غير أنّ الإدريسي لا يقدّم هذه العناصر «قائمة جرد» عمرانية، بل يربطها بوظائفها العملية في الدفاع والتبادل والإدارة، ويبرز تباين توزيعها وكثافتها تبعاً لموقع المدينة وطبيعتها، كما سيظهر في المقارنة بين فاس وسبّية وقرطبة.

١. عناصر العمران الأساسية

يكشف وصف الإدريسي عن نموذج عمراني تتكرر فيه عناصر أساسية: أسوار وأبواب، مسجد جامع يتوسّط المدينة، أسواق متخصصة، وقصر للسلطة. ويعتمد تصنيفاً منهجياً للمدن بين قواعد كبرى مثل قرطبة وطليلة، ومدن متوسطة كشرش، ومراكز صغرى وقرى محصّنة «أهلة عامرة» تقارب المدن في عمرانها، مع التمييز بين مدن قديمة سابقة للفتح وأخرى محدثة (أبو مصطفى، ٢٠٢١). وتبيّن دراسة كافي (٢٠٢١) لعمران مدن الأندلس في «الزهوة» أن الفضاء الحضري يُبنى حول ثنائية «دار الدين» و«دار المدينة»، حيث يحتل المسجد الجامع قلب العمران وتنظم حوله الأسواق وبقية الفضاءات العامة، بما يوفّر خلفية نظرية لتحليل النماذج المغربية-الإفريقية في هذه الدراسة

١,١. الأسوار والتحصينات

تحتل الأسوار مكانة مركزية في وصف الإدريسي للمدن؛ فتؤدي وظائف دفاعية وترسم الحدود الإدارية-الرمزية للمدينة، مع عناية بمواد البناء (حجارة، آجر، طين) وأبعاد الأسوار وتوزيع الأبراج. يستخدم الإدريسي مصطلحات متميزة تعكس فهماً دقيقاً؛ إذ يميّز بين «القلعة» بوصفها حصناً بسيطاً في موضع طبيعي منيع، و«الحصن» بوصفه بناءً أوسع وأكثر تعقيداً للدفاع عن نقطة استراتيجية بسور وأبراج مراقبة (King & Jacka, 2023, pp. 38-39)، مما يعكس تراتبية دفاعية تنتشر فيها القلاع على المرتفعات والحصون كنقاط ارتكاز أوسع.

في وصفه لمدينة يشير إلى «سور عظيم محكم البناء» تعلوه «أبراج كثيرة» موزعة بانتظام، وإلى «قصة حصينة قائمة على جبل مشرف على المدينة والبحر، لا تُنال من شدة الحصانة» (الإدريسي، ص ٢١٣)، جامعاً بين التحصين الطبيعي (الموقع الجبلي) والصناعي (السور والأبراج) في منظومة دفاع متعددة المستويات. ولا يقتصر هذا العنصر على الغرب الإسلامي؛ إذ تُبين دراسة للقلاع والحصون في بلاد الشام إبان الحكم الصليبي، اعتماداً على مادة «الزهة»، امتداد هذا الوصف التحصيني إلى ذلك الإقليم أيضاً (Mosa & AbdulKarim, 2021)، مما يكرّس التحصينات عنصراً ثابتاً في جهاز الإدريسي الوصفي.

٢,١. الأبواب والبوابات

إذا كان السور يحمي المدينة، فإن الأبواب تنظّم الدخول والخروج بوصفها معالم عمرانية ونقاط تحكّم في حركة الناس والبضائع. يدل تعدّدها على اتساع المدينة وأهميتها الاقتصادية-السياسية، ويعكس كثافة الحركة التجارية التي تستلزم منافذ متعددة، إلى جانب الوظيفة الإدارية-الأمنية في مراقبة الداخلين وجباية الضرائب. في وصفه لفاس يذكر الإدريسي: «أثنا عشر باباً واسعاً، كل باب منها مسمى باسم معروف مشهور [...] منها باب الفتوح العظيم، وباب الحديد المتين، وباب الزياتين المشهور، وباب جو المعروف [...] وكل باب عليه برج عال حصين وحراسة مشددة دائمة تراقب الداخلين والخارجين» (الإدريسي، ص ٢٤٦). يعكس هذا المثال الترابط بين تعدد الأبواب واتساع المجال العمراني وكثافة النشاط التجاري، إلى جانب جهاز حراسة وجباية منظّم يضبط حركة العبور ويتحكّم في موارد المدينة المالية.

٣,١. المساجد الجامعة

يحتل المسجد الجامع قلب المدينة الإسلامية، ويشكل مركزها الروحي والاجتماعي والثقافي. يولي الإدريسي اهتماماً بالمساجد الجامعة في أوصافه، فيصفها من حيث موقعها في وسط المدينة أو في حي رئيسي، ومن حيث حجمها وسعتها، ومن حيث عمارتها من أعمدة رخامية وأروقة وزخارف ومئذنة، ومن حيث وظيفتها من صلاة وتعليم وقضاء وشورى.

في وصفه للجامع القرويين بمدينة فاس يذكر: "وجامع القرويين العظيم بفاس من أعظم جوامع المغرب كله وأحسنها بناءً وأجملها منظراً، له أروقة كثيرة واسعة وأعمدة عديدة من الرخام الملون البديع، وصومعته عالية شاهقة يشاهد من مسافة بعيدة جداً، وفيه من الجص المنقوش بأجمل النقوش والخشب المصنوع بأبداع الصناعة ما يبهّر

الأبصار ويخلب الألباب، وهو جامع عامر دائما بالمصلين الخاشعين والعلماء الأجلاء والطلبة النجباء" (الإدريسي، ص ص ٢٤٥-٢٤٦).

تتعدد وظائف المسجد الجامع في المدينة الإسلامية وتتكامل أبعاده. على البعد الروحي، يشكل المسجد الجامع المكان الرئيسي لأداء الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة التي يلتقي فيها أبناء المدينة من مختلف الأحياء، وصلاة العيدين، والاعتكاف في رمضان. وعلى البعد التعليمي، تعقد في أروقة المسجد حلقات العلم في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب، ويجلس العلماء والفقهاء لتدريس طلاب العلم. وعلى البعد الاجتماعي، يصبح المسجد ملتقى للناس من مختلف الأعمار والطبقات، ومنبرا لسماع الخطب الدينية والإرشادات الأخلاقية والأخبار التي توجه حياة المجتمع. أما على البعد الجمالي، فيمثل المسجد الجامع تحفة معمارية تعكس الذوق الفني والمستوى الحضاري للعصر الذي بني فيه، بأعمدته الرخامية وزخارفه الجصية وخشبه المنقوش ومئذنته.

٤,١. الأسواق

تمثل الأسواق القلب الاقتصادي للمدينة الإسلامية. يصف الإدريسي الأسواق في المدن بأنها عامرة بالتجار والزبائن، ومتنوعة حيث يخصص لكل حرفة أو سلعة سوق خاص بها، ومنظمة سواء كانت مسقوفة أو مكشوفة، ونظيفة تخضع لرقابة المحتسب الذي يراقب الأوزان والمكاييل وجودة البضائع وأخلاق التجار. وفي معرض حديثه عن أسواق قرطبة: "وأسواق قرطبة الكبيرة من أعظم أسواق الدنيا وأعمرها بالناس والبضائع، فيها سوق خاص للعطارين يبيعون فيه العطور والطيب، وسوق آخر للصاغة يصنعون فيه الحلبي الذهبية والفضية، وسوق ثالث للقماشين يبيعون فيه الأقمشة الفاخرة والثياب الجميلة، وسوق رابع للحدادين يصنعون فيه الأدوات والآلات، وهكذا كل صناعة وحرفة في سوق مفردة مستقلة، وأغلب هذه الأسواق مسقوفة بالخشب المتقن ونظيف دائما حسن الترتيب منظم الأقسام" (الإدريسي، ص ص ١٩٨-١٩٩).

يدل التخصص المهني للأسواق على مستوى متقدم من التطور في النشاط الاقتصادي الحضري، وتخصص لكل حرفة سوق مستقل، كما تفرض كثافة الإنتاج وتنوع الحرف هذا التقسيم لتسهيل عمل التجار والمشتريين. هذا التنظيم يعكس وجود نظام إداري ورقابي متطور يعرف في الفقه الإسلامي بنظام الحسبة، وهو نظام يشرف على جودة السلع ونظافة الأسواق وعدالة الموازين والمكاييل ونزاهة المعاملات ومنع الغش والاحتكار، كما يشير هذا التخصص إلى تعقد الحياة الحضرية الإسلامية وتشابك علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية بما يتطلب تنظيما وإدارة تستطيع ضبط هذه الحركة.

٥,١. القصور والمباني الرسمية

تمثل القصور ودور الإمارة رمز السلطة السياسية في المدينة، وتتميز بالفخامة المعمارية والحصانة الدفاعية. يصفها الإدريسي لما تمثله من أهمية سياسية ورمزية: "وبقرطبة العظيمة قصر الخلافة الشهير المعروف بقصر الزهراء البديع، وهو من عجائب الدنيا المشهورة في حسن البناء الفائق وإتقان الصنعة النادر وجمال الزخرفة الباهر، له أروقة كثيرة واسعة وقاعات فسيحة عديدة، أرضها كلها من الرخام الملون البديع الجلوب من بلاد بعيدة، وسقوفها من

الحشب الثمين المذهب المنقوش بأجمل النقوش، وفي وسطه بحرة كبيرة واسعة من الرخام الأبيض النقي، وحولها التماثيل الجميلة والنافورات المتدفقة (الإدريسي، ص ص ١٩٩-٢٠٠).

تعكس القصور في المدن الإسلامية أبعاداً متعددة من الحياة الحضارية، وتعكس مكانة السلطة السياسية وهيبتها، إذ ينظر إلى القصر كرمز للدولة وقوتها، وتدلل على الرفاه الاقتصادي الذي يسمح ببناء هذه المنشآت، كما تشهد على التقدم الذي بلغته فنون العمارة والزخرفة والنحت في الحضارة الإسلامية، مما يجعل هذه القصور معالم حضارية تبقى شاهدة على تلك الحقبة.

لا تكتسب هذه العناصر العمرانية (الأسوار، المساجد، الأسواق، القصور) معناها الكامل إلا حين نفحصها مجتمعة في نماذج محددة. تتجلى البنية العمرانية النظرية التي استخلصناها بوضوح في ثلاث مدن اختارها الإدريسي لأهميتها الاستراتيجية والحضارية، حيث تتضافر هذه العناصر لتشكل كيانا حضريا متكاملًا. وتشير قراءة حديثة لتحويل مادة «نزهة المشتاق» في الأطالس البحرية لعلّي الشرفي الصفاقسي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إلى أن هذا البناء العمراني نفسه يخضع لإعادة ترتيب حين يُنقل إلى وسيط خرائطي بحري؛ إذ يغلب في الأطالس الشرفية إبراز الخطوط الساحلية والبحار وعُقد الملاحة، أحيانا على حساب المدن الساحلية نفسها فضلا عن المدن الداخلية، بما يعكس ترجمة بصرية-نصّية تجعل الأسوار والمرافئ والتحصينات البحرية محور الصورة المدنية في فضاء المتوسط (Tiburcio & de Castro León, 2024).

٢. نماذج تطبيقية من الوصف العمراني المفصل

يقدم الإدريسي في كتابه نماذج تطبيقية تجسد ما سبق من ملامح عمرانية للمدينة الإسلامية، وتتجلى هذه النماذج في ثلاث مدن رئيسية اختارها لأهميتها الحضارية والاستراتيجية: فاس كنموذج للمدينة المغربية العريقة بمؤسساتها الدينية والعلمية، وسبتة كبوابة بحرية تربط بين القارتين، وقرطبة كعاصمة للخلافة الأموية في الأندلس. تكشف أوصاف الإدريسي لهذه المدن عن تنوع النسيج العمراني الإسلامي وثراء تجربته الحضارية.

١،٢. مدينة فاس

يقدم الإدريسي وصفاً شاملاً لفاس يبرز تفرداها العمراني ومكانتها الحضارية في المغرب الإسلامي؛ فهي «في الحقيقة مدينتان متجاورتان متلاصقتان: إحداهما تسمى عدوة القرويين [...] والأخرى تسمى عدوة الأندلسيين [...] يفصل بينهما نهر كبير جار بماء عذب غزير، وفي كل عدوة منهما جامع عظيم [...] وهما متقابلان على ضفتي النهر [...] ولفاس سور محكم متين وأبواب [...] بلغت اثني عشر باباً، وأسواقها عامرة [...] وبها من الفنادق الواسعة [...] والحمامات [...] والمدارس العامرة [...] ما لا يحصى كثرة، وأهلها معروفون بأنهم أهل علم غزير وأدب رفيع وصناعة متقنة وتجارة واسعة، ومياهها عذبة غزيرة [...] وهواؤها طيب نقي صحي» (الإدريسي، ص ص ٢٤٤-٢٤٨).

يكشف هذا النص عن بنية حضرية مركّبة ذات عدوتين تعكسان تطوراً تاريخياً وتنوعاً في أصول السكان (القرويون والأندلسيون)، يفصل بينهما النهر بوصفه حداً طبيعياً و رابطاً وظيفياً يوفر الماء ويُيسّر الاتصال عبر الجسور.

وتدل الأسوار المحكمة والأبواب الاثنا عشر على اتساع المجال العمراني ومكانة المدينة السياسية والاقتصادية، فيما تشير الأسواق العامرة والفنادق والحمامات إلى حيوية تجارية وخدمية، وتكشف كثرة المدارس وجامعي القرويين والأندلسيين عن ثقل علمي وثقافي مميز. كما تؤكد الإشارة إلى وفرة المياه وعذوبتها وجودة الهواء البعد البيئي في تعريف هوية المدينة، بحيث تتبدى فاس نموذجاً مكثفاً للمدينة الإسلامية من حيث التكوين المجالي، وبنائها الدينية والاقتصادية والتعليمية.

٢،٢. مدينة سبتة

تحتل مدينة سبتة التي ولد فيها الإدريسي بوصف خاص يعكس معرفته الشخصية بها ومعاينته المباشرة لمعاملها. يتميز وصفه بالدقة في رصد التحصينات والمنشآت البحرية والأنشطة الاقتصادية والعسكرية، ويكشف عن إدراكه لموقعها الاستراتيجي على المضيق الفاصل بين المغرب والأندلس: "وسبتة مدينة عظيمة حصينة منيعة قائمة على ساحل البحر الكبير، لها سوران محكمان: سور داخلي قديم متين يحيط بالمدينة القديمة الأصلية، وسور خارجي جديد واسع يشمل الأرباض الجديدة التي نمت حول المدينة، ولها سبعة أبواب كبيرة، كل باب عليه برج عال حصين وحراسة مسلحة قوية مستمرة. وبها جامع كبير مشهور وأسواق عامرة نابضة بالحركة ومرسى واسع آمن للسفن الكبيرة، وهي محط معروف ومشهور للتجار القادمين من بلاد الأندلس القريبة والمغرب الواسع، وبها صناعة متقنة ومشهورة للمراكب البحرية الكبيرة والصغيرة، ودور واسعة لصناعة الأسلحة المتنوعة والعدد الحربية (الإدريسي، ص ص ٢٣٣-٢٣٤). يبرز هذا الوصف تميز مدينة سبتة على مستويات عدة. تدل التحصينات المزودة على الأهمية الاستراتيجية للمدينة الواقعة على مضيق يفصل بين قارتين ويربط بين بحرين. ويعكس الطابع البحري المتمثل في المرسى وصناعة المراكب ارتباط المدينة بالبحر كمصدر للرزق وطريق للتجارة. وتؤكد الوظيفة التجارية كمحط للتجار والوظيفة العسكرية المتمثلة في صناعة الأسلحة دور سبتة في شبكة المدن الإسلامية بين المغرب والأندلس، وفي الدفاع عن الثغور.

٣،٢. مدينة قرطبة

تحتل قرطبة، قاعدة الأندلس ودار الخلافة الأموية في الغرب الإسلامي، بوصف يختزل مكانتها السياسية والحضارية في «نزهة المشتاق»: «وقرطبة العظيمة كانت قاعدة بلاد الأندلس كلها ودار الخلافة الأموية المجيدة في الغرب الإسلامي، وهي مدينة كبيرة عظيمة واسعة قائمة على ضفاف الوادي الكبير المبارك، بها الجامع الأعظم المشهور الذي لا نظير له في الدنيا كلها حسناً وجمالاً وإتقاناً، له أكثر من ألف عمود قائم من الرخام الملون البديع المجلوب من بلاد بعيدة، وسقفه العالية من الخشب الثمين المذهب اللامع والمنقوش بأجمل النقوش، وفيها قصر الزهراء الشهير الذي هو من عجائب الدنيا المعودة في الجمال والفخامة. وأسواقها واسعة عامرة دائماً وصناعاتها متقنة مشهورة، وأهلها معروفون بأنهم أهل أدب رفيع وعلم غزير وذوق فني رفيع» (الإدريسي، ص ص ١٩٧-١٩٨).

يظهر هذا النص تراكم ثلاثة أبعاد رئيسة لقرطبة: بُعد تاريخي-سياسي بصفتها قاعدة الأندلس ودار الخلافة، وبُعداً معمارياً يتمثل في الجامع الأعظم بأعمدته الرخامية التي تربو على الألف وسقفه المذهبة، وقصر الزهراء المعهود من عجائب الدنيا، وبُعداً اقتصادياً-ثقافياً يتجلى في الأسواق الواسعة والصناعات المتقنة وسكان موصوفين بالأدب

والعلم والذوق الفني. وتقدّم قرطبة، بهذا التكامل، نموذجاً مكثفاً للمدينة الإسلامية في أوج ازدهارها، وهو ما يؤكده عبد الكافي (٢٠٢١) حين يبيّن أن جامع قرطبة يحتل موقعاً مركزياً في شبكة المدن الأندلسية، بوصفه مسجداً لا يُضاهى في ضخامته المعمارية وتداخل وظائفه الدينية والمدنية ضمن منظومة حضرية متكاملة. ويقتضي استيعاب دلالات هذا البناء المادي، في سياق الدراسة، ربطه بالحرّك الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي اللذين يمنحان هذه المعالم العمرانية وظائفها اليومية.

III. المحور الثالث: الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية

يتجاوز الإدريسي الوصف الجغرافي إلى رصد منهجي للحياة الاقتصادية والاجتماعية يشمل «المزروعات، والغلات، وأنجاس البناء... والصناعات التي تنفق بها، والتجارات التي تجلب إليها وتُحمل منها» (وشاح، ٢٠٢١، ص ٢٣٩). يفحص هذا المحور الحرف والصناعات والشبكات التجارية البرية والبحرية والتنظيم الاجتماعي، بما يتفق مع تقليد الإدريسي للمدن بوصفها مراكز متعددة الوظائف — دينية ومدنية واقتصادية وتعليمية — لا مجرد عقد طريقية (عبد الكافي، ٢٠٢١).

يتجلى دور النشاط الاقتصادي في تنوّع الحرف والصناعات المتقنة التي يصفها الإدريسي، بما يعكس حيوية اقتصادية وتطوّراً تقنياً ملحوظاً في المدن الإسلامية التي تناولها.

١. النشاط الاقتصادي كمحرك للحياة الحضرية

يتجلى دور النشاط الاقتصادي في تنوّع الحرف والصناعات المتقنة التي يصفها الإدريسي، بما يعكس حيوية اقتصادية وتطوّراً تقنياً ملحوظاً في المدن الإسلامية التي تناولها.

١.I. تنوّع الحرف والصناعات المتقنة

أ. صناعة النسيج والأقمشة الفاخرة

يشير الإدريسي إلى أن مدينة المرية اشتهرت بصناعة الحرير والديباج فيقول: «ومدينة المرية الجميلة صناعة متقنة مشهورة للحرير اللامع والديباج المنقوش بأجمل النقوش والزخارف، وثيابها الفاخرة الجميلة تحمل وتنقل إلى سائر بلاد الأندلس الواسعة والمغرب الكبير ومصر البعيدة والشام الخصب، وهي من أحسن ما يصنع في الدنيا كلها وأجمله وأغلاه ثمناً» (الإدريسي، ص ٢١٣-٢١٤).

يدل هذا التخصص الصناعي على تراكم خبرة تقنية في هذا المجال، وعلى توافر المواد الخام أو القدرة على استيرادها، وعلى وجود أسواق داخلية وخارجية واسعة لتصريف هذه المنتجات، بما يجعل هذا التخصص خياراً اقتصادياً مربحاً ومستداماً.

ب. صناعة المعادن والأدوات

في وصفه لمدينة المغرب العامرة، يذكر الإدريسي صناعة النحاس الأحمر والحديد الصلب: «ومدينة فاس العامرة من صناعات النحاس الماهرين والحديد المتقنين عدد كبير جداً لا يُحصى، يصنعون منها الأواني المنزلية النافعة والآلات

الزراعية الضرورية والأسلحة الحربية المتنوعة، وصناعاتهم متقنة جداً مشهورة في البلاد» (الإدريسي، ص ص ٢٤٦-٢٤٧).

ت. الحرف اليدوية المتنوعة

يشير الإدريسي في مواضع متفرقة إلى الدباغة المتقنة للجلود، والصباغة للأقمشة والجلود، والخياطة الدقيقة، والنجارة للأثاث والأبواب، وصناعات الفخار والخزف، وغيرها من الحرف اليدوية التي تزخر بها المدن الإسلامية وتعمر أسواقها. وتؤكد قراءة عبد الكافي (٢٠٢١) أن هذا الثراء الحرفي يرتبط بتنوع عمراني واضح؛ إذ يربط بين الحرف والصناعات وبين منشآت يعدّها الإدريسي علامات بارزة على ازدهار المدينة، مثل المساجد الجامعة والقصور والدور والحمامات والمنشآت المائية، بما يعكس مستوى عالياً من الترف المعيشي والرخاء الاقتصادي في المجتمع الأندلسي.

٢. التجارة

يبرز الإدريسي التجارة بوصفها شبكة تربط المدن بأقاليمها القريبة والبعيدة عبر طرق برية وبحرية وأسواق مركزية.

١,٢. الشبكات التجارية البرية الواسعة

يذكر الإدريسي بدقة الطرق التجارية البرية والمسافات بينها بالأيام أو الأميال، وأهم المدن الواقعة على هذه المسالك التي تشكّل محطات استراحة وتبادل تجاري: «ومن مدينة فاس الكبيرة إلى مدينة تلمسان العامرة مسيرة ثمانية أيام كاملة بالقوافل المحملة، والطريق بينهما آمن مأمون والتجارة قائمة مستمرة، تنقل البضائع المتنوعة على ظهور الدواب القوية والقوافل الكبيرة المنظمة» (الإدريسي، ص ٢٤٩).

تدل هذه المعطيات على أن الطرق التجارية تؤدي وظيفة اقتصادية مباشرة (نقل البضائع) ووظيفة حضارية غير مباشرة تتمثل في انتقال الأفكار والمعارف بين الأقاليم، كما يشير تأكيد الأمن على الطرق إلى استقرار السلطة وقدرتها على حماية التجار والمسافرين، فتغدو المدن الواقعة على هذه المسالك عقداً في شبكة متصلة تزدهر بمرور القوافل وانتعاش أسواقها.

٢,٢. الشبكات التجارية البحرية المزدهرة

تخطى الموانئ البحرية بموقع محوري في وصف الإدريسي؛ فهي بوابات التجارة بين سواحل المتوسط وما وراءها، ونقاط التقاء بين الشرق والغرب. يُبرز وصفه للمهدية هذا الدور: «مدينة ساحلية على البحر الكبير، لها مرسى عظيم واسع آمن تأتية المراكب الكبيرة المحملة من جزيرة صقلية القريبة وبلاد الأندلس الغربية والشام البعيد ومصر الغنية، وبها تجار أغنياء كثيرون المال والتجارة ومخازن واسعة كبيرة لتخزين البضائع المتنوعة المستوردة والمصدرة» (الإدريسي، ص ٢٨٣-٢٨٤). يكشف هذا النموذج أن التجارة البحرية تستند إلى مرافئ آمنة، وبنية تخزين متخصصة، ورؤوس أموال تجارية؛ كما يدل تنوع الجهات المذكورة على اتساع الشبكة المتوسطية وكون هذه الموانئ مراكز للتبادل الثقافي والحضاري فضلاً عن وظيفتها الاقتصادية.

وتبيّن قراءات حديثة لمسار تلقّي نص الإدريسي استمرار مركزية المرافئ في التمثّل المغربي للمتوسط؛ إذ أعاد عليّ الشرفي الصقفاقي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي تنظيم مقتطفات «نزهة المشتاق» في أطالس

بحرية تركز على البحار والمضايق والمدن الساحلية، مرتباً السرد من الشرق إلى الغرب (Tiburcio & de Castro León, 2024)، بما يوحي بتحوّل وصف الإدريسي للموانئ إلى مخزون معرفي معتمد في صوغ صور الشبكات التجارية.

٣,٢. دور الأسواق في الربط الإقليمي والدولي

تتجاوز الأسواق في المدن الإسلامية التبادل المحلي إلى شبكة تربط بين أقاليم متباعدة، وتكشف أوصاف الإدريسي عن مدن تحوّلت إلى عقد تجارية تلتقي فيها طرق القوافل من الشمال والجنوب وتتبادل فيها ثروات الأقاليم المختلفة: «وسجلماسة مدينة عظيمة كبيرة واقعة على أطراف الصحراء الكبرى، كثيرة التجار الأغنياء المشهورين، وهي محط رئيسي مهم لقوافل السودان الكبيرة القادمة من الجنوب البعيد والتي تأتي محملة بالذهب الأحمر الخالص والعبيد الأقوياء والعاج الأبيض الثمين، ومنها تحمل وتصدّر البضائع المصنوعة والثياب الجميلة والحبوب الغذائية إلى بلاد السودان الواسعة جنوباً» (الإدريسي، ص ٢٥٢).

هنا تظهر المدينة حلقة وصل بين العالم الإسلامي شمالاً وممالك السودان جنوباً؛ ويتطلّب هذا الدور موقعاً استراتيجياً على أطراف الصحراء، وتجاراً يملكون رأس المال والخبرة لتنظيم القوافل، ومخازن واسعة لحفظ البضائع، فتصير هذه الحواضر فضاءات لتلاقي السلع والثروات، ولتبادل الأفكار والمعارف في آن واحد.

٣. الجانب الاجتماعي

يرصد الإدريسي الأبعاد الاجتماعية للمدينة الإسلامية إلى جانب مكوّناتها العمرانية والاقتصادية، فيقدّم صورة عن أنماط العيش والعلاقات بين الجماعات المختلفة، بما يسمح بإعادة تركيب «روح» المدينة وتمثّل سكانها لفضائهم الحضري.

١,٣. العادات والتقاليد المتوارثة

يولي الإدريسي عناية واضحة لعادات السكان وتقاليدهم وطرائق عيشهم؛ ففي وصفه لأهل غرناطة يذكر أنهم «أهل ظرف وأدب وحسن معاشرّة، يميلون إلى اللهو المباح والطرب الجميل والموسيقى الرقيقة، ولهم عناية باليساتين والمنتزهات والرياض الخضراء» (الإدريسي، ص ٢٠٧). يدلّ هذا النص على أثر البيئة الطبيعية والمناخ المعتدل في تشكيل الذوق الجمالي، وعلى انعكاس الازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي في أنماط العيش؛ إذ ينتقل السكان من مجرد إشباع الحاجات المادية إلى الاهتمام بالترفيه الراقي والفضاءات الخضراء. وبذلك يضيف الإدريسي بعداً إنسانياً إلى وصفه للمدن، فتذكر لا بوصفها مجالاً عمرانياً فحسب، بل فضاءً ثقافياً يتجسّد في طباع ساكنيها.

٢,٣. الحياة اليومية للسكان

تتضمّن نصوص الإدريسي إشارات متفرقة إلى تفاصيل الحياة اليومية تكشف عن بنية المجال الاجتماعي. فالأسواق تظهر فضاءً للتبادل المادي والتلاقي الاجتماعي في آن واحد؛ يلتقي فيها أفراد من طبقات وحرف مختلفة، وتتجاوز حركة البيع والشراء مع تبادل الأخبار والمعلومات. وتشير الأوصاف كذلك إلى انتشار الحمامات العامة وما تؤمّنه من خدمات النظافة والراحة، وإلى كثرة المساجد التي تؤدّي فيها الصلوات وتُعقد فيها حلقات التعليم والاجتماع.

تبيّن هذه العناصر تراكب الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والدينية في فضاءات مشتركة، بحيث لا ينفصل التنظيم الاجتماعي عن بنية العمران ووظائفه.

كما يلمح الإدريسي إلى تنظيم دقيق للأحياء السكنية؛ إذ تستقر كل حرفة أو جماعة إثنية أو قبيلة في حيّ يكسبها طابعاً خاصاً ويسهّل شبكات التضامن المهني أو القرابي. ويشير هذا التوزيع إلى مدن متعدّدة المكونات، متماسكة في الوقت نفسه، تستوعب التنوّع ضمن إطار من الوحدة.

٣,٣. العلاقات الاجتماعية والتعايش

يرصد الإدريسي في بعض المواضع التعدّد الإثني والتنوّع السكاني في الحواضر الكبرى، كما في وصفه لإشبيلية حيث «من العرب والبربر والأندلسيين جماعات كثيرة» يتعاملون «في أمن وسلام وتفاهم»، ولكل جماعة حيّها ومسجدها وسوقها (الإدريسي، ص ٢٠٢). توحى هذه الصورة بوجود نمط من التعايش المنظم عمرانياً واجتماعياً، يتيح لكل جماعة الحفاظ على خصوصيتها مع اندماجها في نسيج حضري واحد. وبذلك تصبح المدينة إطاراً حاضناً للتنوّع، لا عائقاً أمامه، ويغدو التعدّد جزءاً من تعريف الهوية الحضريّة لا عاملاً لتفكّكها.

IV. المحور الرابع: البعد الحضاري والثقافي

رصد المحور الثالث النشاط الاقتصادي والبنية الاجتماعية. يتجاوز المحور الرابع المستوى المادي ليفحص البعد الثقافي والديني: المؤسسات العلمية، دور العلماء، مركزية المسجد، والقيم الدينية المنظّمة للحياة اليومية.

١. المراكز العلمية (منارات المعرفة والإشعاع الفكري)

ينبثق نور المعرفة في المدينة من منارات عدة، فيتوهج أولاً في رحاب مساجدها الجامعة التي كانت منابر للعلم، ويتجسد في صروح مدارسها ومؤسساتها التعليمية المستقلة، وتنبض هذه المراكز جميعها بحياة فكرية دائبة، تتجلى في حلقات العلم العامرة والمناظرات التي تشدّ العقول.

١,١. المساجد الجامعة كمراكز علمية ومنابر للمعرفة

يمثل المسجد الجامع مركزاً للعبادة ومؤسسة تعليمية تُدرّس فيها العلوم الشرعية واللغوية والعقلية. يبرز الإدريسي هذا البعد في وصفه لجامع القيروان: "وبجامع القيروان العظيم من العلماء الأجلاء والفقهاء الكبار عدد كبير جدا لا يحصى، وفيه تقرأ وتدرّس بانتظام كتب الفقه المالكي والحديث النبوي الشريف والنحو العربي والأدب الرفيع، ويأتيه الطلبة النجباء من كل مكان بعيد وقريب لطلب العلم والمعرفة، وفيه خزانة كتب عظيمة واسعة تضم آلاف المخطوطات النفيسة والنادرة" (الإدريسي، ص ٢٦٩).

تتعدد وظائف المسجد العلمية؛ فهو فضاء لتدريس العلوم الشرعية (فقه، حديث، تفسير، عقيدة) واللغوية (نحو، صرف، بلاغة، أدب)، واستضافة المناظرات الفقهية والفكرية التي تثري الحياة العلمية، وحفظ المخطوطات في خزائنه بما يصون التراث ويطيحه للدارسين. وتكشف دراسات الأطالس المغاربية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ولا سيما تحوّل «نزهة المشتاق» في أطالس عليّ الشرفي الصفاقسي، استمرار التداخل بين الفضاء القرآني والفضاء التعليمي-العلمي؛ إذ صيغ بعض الإنتاج الجغرافي الخرائطي في هيئة مادية تحاكي المصحف المغاربي

في المقاس والتنظيم الداخلي، مما يدل على امتداد المعرفة الجغرافية ضمن أطر رمزية تشكّلها الثقافة القرآنية (Tiburcio & de Castro León, 2024).

٢,١. المدارس والمؤسسات التعليمية المستقلة

بدأت المدارس المستقلة عن المساجد تظهر وتنتشر تدريجياً في بعض المدن الإسلامية الكبرى في القرن السادس الهجري، وإن كان الإدرسي لا يفصل كثيراً في وصفها لأنها كانت ظاهرة حديثة نسبياً في عصره: "ومدينة فاس الكبيرة مدارس كثيرة عديدة منتشرة في الأحياء، فيها الطلبة الوافدون من البلاد البعيدة يتعلمون العلوم المختلفة وقيّمون للدراسة، وينفق عليهم سخاء من أموال الأوقاف الخيرية الكثيرة المخصصة لهذا الغرض النبيل" (الإدرسي، ص ص ٢٤٦-٢٤٧).

هذه المدارس المستقلة تمثل تطوراً مهماً في التعليم الإسلامي، حيث توفر للطلبة مكاناً مخصصاً للدراسة والإقامة، وتضمن لهم النفقة من الأوقاف، مما يتيح للطلاب الفقراء والوافدين من بلاد بعيدة أن يطلبوا العلم دون قلق على الرزق والمأوى.

٣,١. حلقات العلم والمناظرات الفكرية

يشير الإدرسي في بعض المواضع إلى حيوية الحياة العلمية والفكرية النابضة في المدن الإسلامية الكبرى: "ومجالس العلم الواسعة في جامع قرطبة العظيم لا تنقطع أبداً ليلاً أو نهاراً، والعلماء الكبار يتناظرون بأدب ورياسة في مسائل الفقه الدقيقة وأصول الدين العميقة والفلسفة الرفيعة، والطلبة يحضرون ويستمعون بإنصات ويسألون بأدب" (الإدرسي، ص ص ١٩٨-١٩٩).

هذه الصورة الحية للنشاط الفكري المتواصل تعكس مجتمعا يقدر العلم والمعرفة ويحترم العلماء، ويوفر لهم الفضاءات المناسبة للبحث والتدريس والمناظرة، مما يخلق بيئة خصبة للإبداع الفكري والتطور العلمي. لا يمكن فهم هذا الإشعاع الثقافي والنشاط العلمي بمعزل عن الإطار الديني والروحي الذي يحتضنه ويوجهه. فالمساجد التي تشكل مراكز العلم هي أولاً وقبل كل شيء بيوت عبادة، والقيم التي توجه الحياة الثقافية مستمدة من المرجعية الإسلامية. يكشف هذا التلازم بين العلم والدين عن خاصية جوهرية في الحضارة الإسلامية: عدم الفصل بين المعرفة والإيمان، بين العمران والعبادة، بين الدنيا والدين.

٢. الإشعاع الثقافي

يتجاوز نور المدينة أسوارها ليشع ثقافة وحضارة، فيقود علماؤها وفقهاؤها حركة المجتمع الفكرية، وتزدهر بين جدرانها حركة التأليف والنسخ والترجمة التي تحفظ المعارف وتنقلها، وتدخل في حوار علمي وثقافي خلاق مع غيرها من المدن، فتتبادل معها أنوار المعرفة.

١,٢. دور العلماء والفقهاء في قيادة المجتمع

يمثل العلماء والفقهاء في المدينة الإسلامية قادة الرأي والفكر في المجتمع، ومرجعيات في الفتوى والقضاء والتوجيه، ويذكر الإدرسي في أوصافه كثرة العلماء والفقهاء في المدن، مما يعكس مكانتهم الاجتماعية الرفيعة: "ومدينة

فاس الكبيرة من العلماء الأجلاء والفقهاء المشهورين جماعة كبيرة معروفة في البلاد، يرجع إليهم الناس في الفتاوى الشرعية الدقيقة والأحكام القضائية المعقدة والمشورة في الأمور العامة، ولهم مكانة عظيمة محترمة عند الخاصة من الأمراء والولاة وعند العامة من عموم الناس " (الإدريسي، ص ٢٤٧).

هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة للعلماء تعكس نظام قيم المجتمع الإسلامي الذي يضع العلم والمعرفة في مرتبة عالية، ويحترم حملة العلم ويقدرهم، مما يشجع على طلب العلم ونشره.

٢،٢. حركة التأليف والنسخ والترجمة

يعكس وصف الإدريسي لخزائن الكتب حضور حركة نشطة للتأليف والنسخ والترجمة؛ إذ يذكر أن «خزائن الكتب العامة والخاصة» في قرطبة زمن الخلافة الأموية كانت «عظيمة جداً لا نظير لها، فيها من نفائس المصنفات النادرة والمخطوطات القيمة والكتب المترجمة من اليونانية والسريانية والفارسية ما لا يحصى كثرة»، وأن الخلفاء أنفقوا «الأموال الطائلة في جمع الكتب ونسخها وتجليدها» (الإدريسي، ص ١٩٩-٢٠٠).

بلغ عدد مجلدات مكتبة الحكم الثاني نحو ٤٠٠,٠٠٠ مجلد جمعت من ثلاث مجموعات: مكتبة القصر الموروثة، ومكتبة أخيه محمد، ومكتبته الخاصة (Haoua, 2025). ولم تقتصر هذه المكتبة على الجمع، بل ضمت مركز ترجمة عمل فيه مترجمون متمكنون من اليونانية واللاتينية، من أبرزهم عبد الله الصقلي ومحمد النبائي ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وتركزت الترجمات في مجالات الطب والهندسة والفلك (Haoua, 2025). يبين ذلك أن قرطبة كانت مركزاً فاعلاً لإنتاج المعرفة وتحويلها ونشرها، لا مجرد مستودع للكتب.

واستمر تداول «نزهة المشتاق» في إفريقية والمغرب والأوساط الموريسكية بعد سقوط الأندلس، عبر نسخ محفوظة في المكتبات التونسية واستخدامات تعليمية واستشارات جغرافية (Tiburcio & de Castro León, 2024)، مما يعكس امتداد حركة التأليف والنسخ والترجمة والتداول الفكري في فضاء المتوسط الإسلامي.

٣،٢. التفاعل الثقافي والعلمي بين المدن

يصور الإدريسي شبكة تفاعل ثقافي وعلمي بين المدن الإسلامية؛ إذ يرحل العلماء والطلبة بين الحواضر طلباً للعلم ونشراً له، وتنتقل الكتب والرسائل العلمية عبر القوافل والمراكب. ويشير إلى رحلات «من مدينة قرطبة الكبيرة إلى إشبيلية القريبة، ومن فاس العامرة إلى القيروان البعيدة، ومن المرية الساحلية إلى المهديّة عبر البحر، يطلبون العلم النافع في شتى الفنون ويدرسونه للآخرين، ويتبادلون الكتب والرسائل العلمية» (الإدريسي، ص ١٩٨). تكشف هذه الصورة عن شبكة تواصل فكري واسعة أسهمت في انتشار المعرفة وتشكل هوية ثقافية إسلامية مشتركة رغم التنوع الإقليمي.

ويُظهر مسار تلقّي «نزهة المشتاق» امتداد هذا التفاعل في الزمن؛ فقد اعتمد ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، كتاب الإدريسي أساساً لعمله «بسط الأرض في الطول والعرض»، واستند إليه ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) في القسم الجغرافي من «كتاب العبر»، حيث رسم خريطة عالم «على نمط الخريطة التي رسمها صاحب كتاب روجر. (Ahmad, 1992, p. 170) «واستمر الأثر في تونس عبر أسرة الشرفي

الصفافسي التي حفظت مخطوطات «النزهة» وأنتجت في القرن السادس عشر أطالس بحرية مستندة جزئياً إلى خرائط الإدريسي، ثم في عمل أبي القاسم الزباني (ت. ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م) الذي جمع الأقسام السبعين في خريطة موحدة (Ahmad, 1992, pp. 170–171). وتشير دراسات حديثة إلى استمرار تكييف مادة «النزهة» في الأطالس المغربية، ولا سيما أطالس الشرفي الصفافسي (Tiburcio & de Castro León, 2024)، بما يعكس المكانة المركزية لهذا العمل في منظومة التبادل الثقافي بين حواضر الغرب الإسلامي والمشرق.

٣. البعد الديني والروحي

يغوص التحليل أخيراً في قلب المدينة الروحي، فيجد الدين متجذراً في مركزية المسجد الذي تلتف حوله تفاصيل الحياة اليومية، ومن هذا المركز تنبثق القيم الدينية لتنظم إيقاع هذه الحياة وتفاعلاتها، وصولاً إلى أعماق تجلياتها حين تتجسد هذه القيم في الحجر ذاته، شاهدة على العلاقة الوثيقة بين الدين والعمران.

١,٣. مركزية المسجد في الحياة اليومية

يمثل المسجد الجامع في المدينة الإسلامية القلب الروحي للمدينة، والمركز الذي تدور حوله الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية: "والمسجد الجامع الكبير في كل مدينة إسلامية عامرة هو قبلة الناس جميعاً ومحل اجتماعهم اليومي، فيه يؤدون الصلوات الخمس المفروضة بانتظام ويستمعون الخطب الدينية المفيدة يوم الجمعة ويتشاورون بينهم في أمورهم العامة والخاصة" (الإدريسي، ص ١٩٨).

هذه المركزية الواضحة للمسجد تعكس الطابع الديني العميق للمدينة الإسلامية، حيث يشكل الدين الإطار المرجعي الأساسي الذي ينظم حياة الناس ويحدد قيمهم وسلوكياتهم.

٢,٣. القيم الدينية في تنظيم الحياة اليومية

تنظم القيم الإسلامية إيقاع الحياة اليومية في المدينة تنظيمًا دقيقاً. تقطع الصلوات الخمس العمل في أوقات محددة، فيتوقف النشاط التجاري والحرفي، ويتوجه الناس إلى المساجد، مما يجعل اليوم منقسماً إلى فترات تتخللها لحظات تذكّر وتعبّد. وتجمع صلاة الجمعة المسلمين أسبوعياً في المسجد الجامع، فيستمعون الخطبة ويتبادلون الأخبار ويتشاورون في شؤونهم، مما يعزز الروابط الاجتماعية ويحفظ وحدة الجماعة. ويغير صوم رمضان نمط الحياة شهراً كاملاً، فتتسبب الحياة ليلاً وتهدأ نهاراً، وتكثر الموائد الجماعية والصدقات، وتزدهر العبادة والتلاوة، وتعيد الزكاة والصدقات توزيع الثروة بين طبقات المجتمع، فتخفف من حدة الفقر وتحقق التكافل. وتمول الأوقاف الخيرية المؤسسات التعليمية والصحية والاجتماعية، فتضمن استمرارية الخدمات العامة واستقلالها عن تقلبات السلطة السياسية.

٣,٣. العلاقة بين الدين والعمران

يعكس العمران الإسلامي في المدينة قيماً دينية وأخلاقية تتجلى في تفاصيل التخطيط والبناء، ويربط توجيه المساجد نحو القبلة في مكة المكرمة المدينة بالمركز الروحي للإسلام، فيتحدد اتجاه الصلاة ويتشكل محور العمران حول هذا التوجه المقدس، وتحفظ الأزقة الضيقة المتعرجة خصوصية السكان، إذ تمنع الأبصار من النفاذ إلى داخل البيوت، وتحد من حركة المرور السريعة، مما يوفر بيئة آمنة هادئة.

يحترم الفصل الواضح بين المساحات العامة والخاصة حرمة البيوت، فتنبئ المداخل بزوايا منكسرة تحجب الرؤية المباشرة، وترتفع الجدران لحماية الحياة الأسرية من فضول المارة. وتجسد الأوقاف المخصصة للمساجد والمدارس والمستشفيات والسبل قيمة الإنفاق في سبيل الله والعمل الخيري، فتضمن استمرارية هذه المؤسسات وخدماتها للأجيال المتعاقبة، وتعفيها من الاعتماد على السلطة الحاكمة أو تقلبات الأحوال السياسية.

الخاتمة

أظهر التحليل أن الموقع الجغرافي عند الإدريسي يعمل متغيّراً مفسّراً للعمران يوجّه الوظائف الدفاعية والتوسّعية والتجارية للمدينة. وتشكّل البنية المادية من منظومة مترابطة من الأسوار والأبواب والمساجد الجامعة والأسواق والقصور، بينما تكشف الشبكات التجارية البرية والبحرية عن مركزية النشاط الاقتصادي في تشكيل النسيج الاجتماعي وأنماط التعايش. ويضفي المكوّن الثقافي-الديني -عبر المراكز العلمية ودور العلماء ومركزية المسجد- طابعاً مميزاً على العمران الإسلامي، بذلك تتجاوز «نزهة المشتاق» الوصف الجغرافي إلى تصوّر حضري مركّب يدمج المعطيات الطبيعية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية-الثقافية.

غير أن للمصدر حدوداً تقتضي قراءة نقدية؛ فالنص ذو طابع تجميعي يعتمد جزئياً على روايات منقولة، وتفاوت درجة وثوقه بحسب نوع المصدر وقرب الإدريسي من الإقليم الموصوف. كما أن تعقّد تقليد المخطوط وتباين التحقيقات يستلزمان الرجوع إلى طبقات علمية محكمة وإحالات دقيقة. ويركّز الإدريسي أساساً على المعالم المادية والبنى الإدارية والأنشطة الاقتصادية، بينما يبقى حضور الطبقات الاجتماعية الدنيا والصراعات الداخلية محدوداً، كما يصعب غياب التأريخ الدقيق لبعض الأخبار تحديد لحظتها التاريخية.

تفتح هذه النتائج آفاقاً بحثية متعددة: مقارنة منهجية بين وصف الإدريسي وبقية الجغرافيين مثل ابن حوقل والمقدسي والبكري لتقويم نقاط التقاطع والاختلاف ودرجة الموثوقية؛ وفحص المجلدات الخمسة المتبقية لرصد تطوّر الأسلوب وتفاوت كثافة الوصف؛ وتحليل مقارن بين مدن المغرب والمشرق لتحديد الملامح المشتركة والخصائص الإقليمية؛ واستثمار النص في دراسات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمتوسط الإسلامي في القرن السادس الهجري. وتبقى «نزهة المشتاق» مصدراً محورياً شريطة قراءتها بمنهجية نقدية تستحضر سياقها وحدودها.

قائمة المراجع:

- الشريف الإدريسي. (١٩٨٩). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (تحقيق إسماعيل العربي). بيروت: عالم الكتب
السعدي، ع. ف. (٢٠١٠). الشريف الإدريسي وجهوده الجغرافية: سيرته، خارطته، كتابه. مجلة آداب الفراهيدي،
(3)، 466-467.
وشاح، غ. م. (٢٠٢١). منهج الإدريسي من خلال كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". مجلة الباحث في العلوم
الإنسانية والاجتماعية، ١٢(١)، ٢٣٥-٢٥٤.
أبو مصطفى، ك. س. (٢٠٢١). من جديد حول الإدريسي: إشارات اجتماعية واقتصادية من كتاب نزهة المشتاق:
الأندلس أمودجاً. مجلة المؤرخ العربي، ٢(٢٢)، ٨٠٧-٨٣٢.

- عبد الكافي، محمود كامل محمد السيد. (2021). بعض مظاهر العمران في الأندلس من خلال كتاب نزهة المشتاق للإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م). مجلة كلية التربية، جامعة الإسكندرية، المجلد الحادي والثلاثون، العدد الرابع (الجزء الأول)، ٣١٣-٣٤٠.
- Stojkovski, Boris. "Southern Hungary and Serbia in al-Idrisi's Geography." In *Voyages and Travel Accounts in Historiography and Literature*, vol. 1. Trivent Publishing, 2020. DOI: 10.22618/TP.HMWR.2020VTA1.348.005.
- Sarip, M. A. (2020). Al-Idrīsī and a translation and commentary about the Far East from His Nuzhat Al-Mushtāq. In F. Başar, M. Kaçar, C. Kaya & A. Z. Furat (Eds.), *The 1st International Prof. Dr. Fuat Sezgin Symposium on History of Science in Islam Proceedings Book* (pp. 383-403). Istanbul University Press. <https://doi.org/10.26650/PB/AA08.2020.001.027>.
- Ducène, J.-C. (2008). L'Europe dans la cartographie arabe médiévale. *Belgeo*, (3-4), 251-268. <https://doi.org/10.4000/belgeo.8801>
- Mosa, M. M. I., & AbdulKarim, M. S. (2021). القلاع والحصون في بلاد الشام إبان الحكم الصليبي من خلال كتاب الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م): (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). مجلة الآداب، ١١٨، ٣٦١-٣٧٦. <https://doi.org/10.31973/aj.v1i148.4298>
- Ducène, J.-C. (2017). Les œuvres géographiques d'al-Idrīsī et leur diffusion. *Journal Asiatique*, 305(1), 33-41. <https://doi.org/10.2143/JA.305.1.3214911>
- Hiatt, A. (2025). Ibn Khaldūn's Muqaddima and the maps of al-Idrīsī. *Al-ʿUṣūr al-Wuṣṭā*, 33, 1-29.
- Tanrikulu, Murat. 2023. "Seven Climate Understandings in Sharif al-Idrisi and Ibn Khaldun: Different Approaches, Different Reasons." *Journal of Abant Social Sciences* 23 (1): 263-289. <https://doi.org/10.11616/asbi.1213835>.
- Tiburcio, A., & de Castro León, V. (2024). The Transformation of al-Idrīsī's Nuzhat al-Mushtaq in the Atlases of 'Alī al-Sharafi of Sfax. In A. Flüchter et al. (Eds.), *Übersetzungspolitik in der Frühen Neuzeit / Translation Policy and the Politics of Translation in the Early Modern Period* (pp. 203-225). J.B. Metzler. https://doi.org/10.1007/978-3-662-67339-3_10
- Ahmad, S. M. (1992). Cartography of al-Sharif al-Idrisi. In J. B. Harley & D. Woodward (Eds.), *The History of Cartography: Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies* (Vol. 2, pp. 156-174). University of Chicago Press.
- King, M., & Jacka, K. (2023). A GIS mapping of al-Idrisi's geographies of Sicily and Ifriqiya in The Book of Roger. *The Medieval Globe*, 9(1), 27-83. <https://doi.org/10.17302/TMG.9-1.3>
- Haoua, F. (2025). The impact of Andalusian cities on the transmission of translated Arab-Islamic heritage to Europe during the middle ages (Córdoba and Toledo as models). *Revue d'Histoire Méditerranéenne*, 7(1), 127-143.